السيرة الذاتية.. مفهومها وتطورها

م.د. أحمد طه أحمد*

تاريخ التقديم: 2008/11/17 تاريخ القبول: 2009/12/30

ليس أحب إلى قلوب القراء عامة من مسيرة الأدباء والعظماء. وليس أحب إلى قلب القارئ العربي خاصة من مسيرة كتابه المشهورين وأدبائه النابهين، وأعلام تاريخه البارزين.

والسيرة الذاتية هي ما يطمح إلى مطالعتها كل قارئ، فهي سجل حافل لحياة صاحبها، وهي كما نعلم جنس من الأجناس الأدبية النثرية الحديثة (**)، يسعى فيه الكاتب إلى تصوير حياته الخاصة وتجاربه المهمة فيها بأسلوب قصصي مشوق.

أما اختياري لهذا الجنس الأدبي موضوعاً للبحث فيعود إلى إعجابي بسيرة ((سبعون)) لمخائيل نعيمه التي قرأتها فوجدت فيها عالماً رحباً زاخراً بمواقف حية وأسلوباً قصصياً رائعاً يشد القارئ. فضلاً عن ذلك ما يتمتع به هذا الفن من حداثة في العهد إذا ما قيس بغيره من الفنون الأخرى.

قام البحث على أربعة محاور رئيسة: كان الأول في تحديد مفهوم السيرة الذاتية لغةً واصطلاحاً وتميزها عن السيرة الغيرية، وجاء الثاني في الوقوف عند الأجناس الأدبية النثرية المقاربة للسيرة الذاتية من مثل الرواية السيرية والرواية وغيرهما، أما المحور الثالث فقد تناول تطور السيرة الذاتية في الأدب الغربي منذ بداياتها الأولى ومروراً بالفترات التي مرت بها وانتهاءً بالعصر الحديث، في حين

(*) قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

(**) لا تقتصر كتابة السيرة الذاتية على النثر وبشكل حكائي سردي، فقد كتب بعض الشعراء سيرتهم شعراً، كما فعل ذلك محمود درويش في مجموعته الشعرية ((لماذا تركت الحصان وحيداً))، ط3، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2001.وكذلك بدر شاكر السياب في بعض قصائده، على سبيل المثال قصيدة (غريب على الخليج)، ينظر:الأعمال الشعرية الكاملة، ط3، 2000، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد:181–184.

جاء المحور الرابع والأخير في استقراء السيرة الذاتية في الأدب العربي منذ بدايتها المبكرة وانتهاءً بانفرادها بمصطلح نقدي خاص بها.

أولاً_ السيرة لغةً واصطلاحاً:

السيرة لغة: الطريقة ويقال: سار بهم سيرةً حسنةً، وسير سيرةً : حدث أحاديث الأوائل، وسار الكلام والمثلُ في الناس: شاع، ويقال: هذا مثل سائر[1].

أما اصطلاحاً: فهي تعني " فن ترجمة الحياة لشخص ما " أو "تأريخ مدوّن لحياة شخص[2].

أما في ما يخص استخدام كلمتي (السيرة والترجمة)، فإننا نجد – وعلى مر العصور– أن كلمة (سيرة) استخدمت لتدل على التاريخ المسهب للحياة، أما كلمة (ترجمة)[*] فقد استخدمت لتدل على تاريخ الحياة الموجز للفرد، وعلى الرغم من تباين استعمال الكلمتين عند السابقين، إلا أن الاصطلاح الحديث لا يفرق بينهما كثيرا، بل يستخدم إحداهما مرادفة للأخرى [3]. والسيرة على نحو عام " نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي والإمتاع القصصي. ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته"[4].

---

(1) لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مُكرم بن منظور (ت 711هـ)، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، 1956: مادة (سير): 56/6.

(2)معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984: 205.

(*) تعني في اصلها اللغوي، نقل الكلام من لغة الى اخرى، والجمع:تراجم.لسان العرب، مادة(رجم):332/14.

(3) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، يحيى إبراهيم عبد الدائم، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ط)، (د.ت): 31. وينظر: التراجم والسير، محمد عبدالغني حسن، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط2، 1969: 28. نظرية السيرة الذاتية في الفكر الأدبي الحديث، الصادق العمري، مجلة المشكاة، (الدار البيضاء، دار قرطبة للطباعة والنشر) – المغرب، العدد (11)، 1989: 15.

(4) الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، د. أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1987: 547.

وتعد السيرة جنسا من الأجناس الأدبية النثرية مثل الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والمقالة الأدبية والسيرة الأدبية نوعان:

1- **السيرة الغيرية** : وتعني" أن يكتب الإنسان عن الأشخاص البارزين لجلاء شخصياتهم والكشف عن جوانب العظمة وجوانب الانحطاط في هذه الشخصيات "[5].

2- **السيرة الذاتية:** يرى لوجون أن السيرة الذاتية هي تلك: " الرواية النثرية التي يروي فيها شخص ما قصة حياته بعد مضي فترة من الزمن، مسلطاً الضوء على حياته الشخصية وخاصة على تاريخ تكوين شخصيته"[6].

وقد استخلص فيليب لوجون من التعريف السابق معايير جديرة بالاعتبار:

1- **شكل الكلام:** أن تكون السيرة الذاتية على شكل (قصة)، وأن تكون منثورة لا منظومة.

2- **موضوع السيرة الذاتية:** أن تدور على حياة المتكلم الفرد وتاريخ شخص ما.

3- **وضعية المؤلف** : يجب أن يكون كاتب السيرة الذاتية متطابقاً مع الراوي داخل السيرة، وأن يصرح باسمه الحقيقي.

4- **وضعية الراوي** : يجب أن يكون الراوي في السيرة الذاتية متطابقاً مع الشخصية الأساسية (البطل)، وأن يكون متشبثاً بالمنظور الاستعادي للقصة[7].

---

(5) دراسات في كتب التراجم والسير، هاني العمد، المؤسسة الصحفية الأردنية، ط 1، 1981: 8-9.

(6) أدب السيرة الذاتية في فرنسا– المفاهيم والتصورات، فيليب لوجون، ترجمة:. ضحى شيحه، مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد، العدد (4)، 1984: 25. وينظر: فن السيرة الأدبية، ليون إيدل، ترجمة: صدقي عبد الله حطاب، (دون ذكر دار النشر)، القاهرة، (د.ط)، 1973: 14-15.

(7) السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم:عمر الحلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994:59.

وتتمتع السيرة الذاتية بميزتين تعدان من أهم مزاياها:

1- انتظامها الزمني الماضي من الولادة حتى لحظة الكتابة الحاضرة.

2- روايتها بضمير المتكلم بكونه صاحب وجهة النظر في العمل السيري المكتوب[8].

وأما ما يتعلق بمسألة تمييز السيرة الذاتية عن السيرة الغيرية، فعلى الرغم من اعتماد السيرة الذاتية – شأنها في ذلك السيرة الغيرية – على وحدة البناء وتطور الشخصية وقوة الصراع، وكلاهما يعتمد على الحقيقة التاريخية والسرد الأدبي، وهما أقرب صلة بالإنسان، لأنه المجال الذي يدور حوله اهتمام كلٍّ منهما [9]، إلا أن هذا لا يعني التطابق التام بين النوعين، وقد انقسم الدارسون إزاء هذا الموضوع إلى فريقين مختلفين، أما الفريق الأول فيرى أن لا فرق بين السيرة الذاتية والسيرة الغيرية، في الغاية والشكل والمضمون، إلا أن إحداهما تكتب بصيغة المتكلم (أنا) والأخرى بصيغة الغائب (هو)، وكلاهما فن لا علم والدليل على ذلك أنه لو اجتمع عشرون كاتباً على كتابة سيرة لأحد الناس، لتوافرت لدينا عشرون سيرة مختلفة، على الرغم من أن المواد واحدة متفقة. وهذا أمر طبيعي، فلكل كاتب أسلوبه الأدبي الخاص في صياغة النص السردي.

أما الفريق الأخر فيرى أن بينهما شركة كالتي بين كثير من الفنون الأدبية، لكن القول باتفاقهما التام بعيد عن الصواب[10]. والرأي الثاني هو الأرجح والأقرب إلى الصواب عند كثير من الدارسين، وقد وقف النقاد عند جملة من الفروقات التي تميز السيرة الذاتية من الغيرية، منها ما ذكره احسان عباس من كون السيرة الذاتية نقلاً مباشراً من الكاتب نفسه، أما السيرة الغيرية فإنها نقل عن طريق الشواهد والوثائق، ثم إن الصفات التي تجعل السيرة الذاتية عظيمة وجيدة ليست هي نفسها التي تجعل السيرة الغيرية عظيمة وجيدة، وأهم تلك الصفات أن يكون كاتب السيرة الذاتية ذاتياً قبل كل شيء، ينظر إلى نفسه فينقدها ويصورها

---

(8) الذات الممحوة بالكتابة حول الصراع السيزيفي في سيرة فدوى طوقان الذاتية: رحلة جبلية – رحلة صعبة، حاتم الصكر، مجلة راية مؤتة، مجلد 2، العدد (2)، 1993:152.

(9) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 25.

(10) فن السيرة، د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط5، 1981: 110-112.

بدقة. أما كاتب السيرة الغيرية فيكون موضوعياً في نظرته إلى من يترجم له، فهو يقف منه موقف الشاهد لا القاضي أما كاتب السيرة الذاتية فإنه يجمع بين الصفتين[11].

ويذكر (Collins، J) أن السيرة الذاتية تتبع من الداخل، متجهة نحو الخارج، على عكس الاتجاه الذي يمشي فيه السيرة الغيرية.ونجاح كاتب السيرة الذاتية يقاس بنسبة الذاتية في ما كتب، أما نجاح من يكتب سيرة غيرية فيقاس بمقدار تجرده وموضوعيته [12]، فضلاً عن إمكانياته الفنية في الصياغة الأدبية.

ومن الطريف في مجال هذه الموازنة، أن نلحظ نقص السيرة الذاتية – وينطبق ذلك على معظم السيرة الذاتية في الأدب العربي من مثل ((الأيام)) لطه حسين و ((سبعون)) لميخائيل نعمية إذ فات على قارئهما السنوات التي عاشها كل من الكاتبين قبل وفاتهما – وتكامل السيرة الغيرية فلا يقع كاتبها في هذا النقص، لأنه يقدم الحياة كاملة، إلا أن السيرة الغيرية وعلى الرغم من هذا الاكتمال ليست نهائية فمن الممكن أن تكتب ثانية بعد اكتشاف مذكرات ووثائق جديدة، ولكن السيرة الذاتية على الرغم من نقصها تعد نهائية وأخيرة لا يمكن كتابتها ثانية [13]. ولتمييز السيرة الذاتية من غيرها من الأجناس الأدبية المقاربة لها، سيتم تناول هذه الأجناس الأدبية النثرية، لغرض الوقوف على خصائص وميزات السيرة الذاتية الحديثة.

ثانياً_ السيرة الذاتية والأجناس الأدبية النثرية المقاربة لها:

تعد السيرة الذاتية جنساً أدبياً مستحدثاً مقارنة بالأجناس الأدبية النثرية الأخرى من مثل الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والمقالة، وللسيرة الذاتية صلة قوية ومتداخلة من تلك الأجناس النثرية، لاسيما المقاربة لها مثل الرواية السيرية، والرواية، والمذكرات، واليوميات، والذكريات، والاعترافات، والرحلات.

---

(11) م.ن: 112.

(12) نقلا عن فن السيرة:112 /The Doctor Looks at Biog ،p. 43-46

(13) السيرة تاريخ وفن، د. ماهر حسن فهمي، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ط1، 1970: 247–248.

إن من أكثر الأنواع صلة وتداخلاً مع السيرة الذاتية هي الرواية، إذ إن عملية الفصل بينهما ليست بالعملية البسيطة، لأن العلاقة بينهما وثيقة جدا، وهذا ما جعل (بارت) يصف السيرة الذاتية على أنها " رواية لا تجرؤ على الإعلان عن نفسها "[14].

ويرى لوجون إن السيرة الذاتية ما هي في حقيقة الأمر إلا حالة خاصة من الرواية وليست شيئاً غريباً وبعيداً عنها تماماً [1515]. وعلى الرغم من استخدام السيرة الذاتية لكثير من التقنيات الروائية إلا أنها تختلف عنها في بعض السمات والخصائص، إذ إن كاتب السيرة الذاتية لا يعتمد في موضوعه على الخلق والتصور، وإنما يعتمد في ذلك كله على الذاكرة في استحضار الصور والأحداث الماضية ليصوغها صياغة فنية معبرة [16]. وتختلف السيرة الذاتية عن الرواية من حيث المنظور الاسترجاعي للقص، إذ إن " التجارب في السيرة الذاتية ملك للماضي وإن كانت تشير إلى المستقبل، والتجارب في القصة ملك للحاضر وإن عالجت الماضي أو المستقبل. وتفسير ذلك إن كاتب السيرة الذاتية يقدم أحداثاً كلها وقعت في زمن انتهى ولكنها كلها تتجمع لتشكل شخصيته غدا وبعد غد، أما كاتب القصة فلا يقصد من وراء معالجته للماضي – أن يكتب قصة تاريخية – إلا أن يجلو للحاضر صفة من ماضيه أو يضرب لهم مثلاً يحتذونه، ولا يقصد من وراء معالجة المستقبل إلا أن يفتح خيال الجيل الحاضر على أفاق جديدة فالحاضر دائما هو نقطة ارتكازه وانطلاقه إلى الوراء وإلى الأمام"[17]. وتختلف السيرة الذاتية عن الرواية من حيث نهايتها، إذ إننا نجد " السيرة الذاتية معروفة النهاية، يتوقف كاتبها عند حدود حاضره المشاهد الملموس، [في حين] القصة مجهولة النهاية كلما ازددنا توغلاً فيها تكشفنا عالما وجهلنا عوالماً أخرى"[18].

---

(14) الذات ممحوة بالكتابة عن السيرة الذاتية نوعاً أدبياً، حاتم الصكر، مجلة آفاق عربية، بغداد، لعدد (12)، 1991: 115.

(15) أدب السيرة الذاتية في فرنسا – المفاهيم والتصورات: 28.

(16) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 27.

(17) السيرة تاريخ وفن: 248.

(18) السيرة تاريخ وفن: 248–249.

وفضلاً عن ذلك تختلف السيرة الذاتية عن الرواية – وعن الفنون جميعاً – من حيث الشخصيات، فلا وجود للشخصيات الخيالية أو الأسطورية في السيرة الذاتية، إذ يركز كاتب السيرة الذاتية على تصوير نفسه متحريا الصدق في ما يصوره من حياته[19].

أما الرواية السيرية فهي من أكثر الأنواع الأدبية صلة وتداخلاً مع السيرة الذاتية، وقد عرفها لوجون أنها " جميع النصوص التخيلية التي تجعل قارئها يظن على حق أنه يوجد تطابق بين مؤلفها والشخصية انطلاقاً من أوجه الشبه التي يخالها تتراءى له، فهي في حين أن المؤلف – خلافاً للقارئ – اختار أن ينفي هذا التطابق أو اختار على الأقل عدم إثباته"[20].

وتختلف الرواية السيرية عن السيرة الذاتية من حيث اختلاط الأحداث الواقعية بالأحداث المتخيلة ولا يشترط أن يكون كل ما هو واقعي ماثلاً في الرواية، شرط إن لا تكون هذه الإشارات عابرة من الصعوبة إيجاد جذورها في (النص السيري) ونقصد به حياة الكاتب الحقيقية[21].

كما أن اختيار الأحداث في – الرواية السيرية – يجب أن يكون اختياراً فنياً، والمؤلف لا يذكر الحقائق أو الأسماء أو التواريخ إلا ليفصح عن (البطل) الذي يمثله.

ويعد هذا الاختيار من أهم ما يباعد رواية السيرة الذاتية التي تقوم أساساً على تجربة المؤلف وبين السيرة الذاتية [22].

أما ما يتعلق بالسيرة الذاتية وتمييزها عن المذكرات بنوعيها (العامة و الخاصة) فنجد أن المذكرات العامة تختلف عن السيرة الذاتية، إذ يعني الكاتب فيها بتصوير الأحداث المعاصرة أكثر من اهتمامه بنفسه بخلاف السيرة الذاتية، التي

---

(19) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 29.

(20) السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي: 25.

([21]) An Introdutiom to Fiction ،Robert Stanton New York ،Holt ، Rinehart&Winton ،1965 ،p.65.

(22) الأدب القصصي والمسرحي في مصر (من أعقاب ثورة 1919 إلى قيام الحرب الكبرى الثاني)، د. أحمد هيكل، دار المعارف القاهرة، ط2، 1971:150.

يكون فيها الكاتب مركزاً على نفسه ولا يهتم بالمحيط الخارجي إلا بقدر تأثير هذا المحيط في واقعه المعيش [23].

أما المذكرات الخاصة، فهي تختلف عن السيرة الذاتية في كونها لا تعتمد السرد الاسترجاعي مطلقاً وإنما تعتمد على السرد الاني في الزمن الحاضر، وهي تخلو من الترتيب التصاعدي في عرض الأحداث والذي يعد احد الشروط المهمة في السيرة الذاتية [24].

كما أن المذكرات تعتمد على الخصوصية، إذ ليس في حسبان من يكتبها إن يقرأها أي إنسان أخر، وفيها يكون الواحد عارياً في انفعالاته، وهي لا تنتظر النشر، لذا وبشكل افتراضي فهي أكثر صدقاً من السيرة الذاتية [25]. في حين نجد السيرة الذاتية أنها تكتب من أجل أن يطلع عليها القراء، وفيها يكون الكاتب يقظاً حذراً في ما ينتقيه ويورده من أحداث.

وتقترب السيرة الذاتية من أجناس أدبية أخرى ولكن ليس كالقرب من الرواية والرواية السيرية والمذكرات ومن هذه الأجناس الأدبية والمقاربة (الاعترافات) التي ينشغل فيها الكاتب بتقديم الاعتذار والبوح بأموره بكل جرأة [26]. ومنها أيضاً (الذكريات) وفيها يعني الكاتب في الغالب بتسجيل الحياة العامة أكثر من عنايته بتسجيل حياته الخاصة، على عكس ما نجده في السيرة الذاتية إذ جل اهتمام الكاتب فيها ينصرف إلى تصوير نفسه وأفكاره.

---

(23) أدب السيرة الذاتية في فرنسا – المفاهيم والتصورات: 25.

(24) الذات ممحوة بالكتابة عن السيرة الذاتية نوعاً أدبياً: 114.

(25) فن الذات، كتابة السيرة الذاتية في عصر النرجسية، وليم جاس، ترجمة: ياسر شعبان، مجلة البحرين الثقافية، العدد (19)، 1999: 93.

(26) الفلسفة والأدب، تحرير: أي: فيليبس كريفيثر، ترجمة: ابتسام عباس، مراجعة وتقديم: عبد الأمير الاعسم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1989: 281، وينظر: صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر، د. رجاء النقاش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، تونس، (د.ط)، 1976: 5. نظرية السيرة الذاتية في الفكر الأدبي الحديث: 15.

وتعد الذكريات أقل أنواع السيرة الذاتية حظاً من حيث تمثيلها لكاتبها، فهي تحجب أفعال كاتبها وشخصيته. ومن ثم فإن قيمتها الأدبية أدنى من تلك التي تحظى بها المذكرات [27].

أما في ما يخص تمييز السيرة الذاتية عن الرسائل فعلى الرغم من أن أكثر الرسائل لا تدخل في باب السيرة الذاتية إلا لتخرج منه، إلا أن بعضها تكشف عن حياة كاتبها وتتبع أحاسيسه في مرحلة من حياته [28].

ومن أشكال الكتابة الذاتية (الرحلات) التي تعد صورة ذاتية من حيث تعبيرها عن حقبة زمنية في حياة الكاتب ومن حيث تعبيرها عن مشاهد رآها الكاتب، وأهم من هذا فهي تكشف ذات الكاتب وأحاسيسه ونبض وجدانه وتحليل شخصيته في مرحلة أو مواقف من حياته.

ومن أشكال الكتابة الذاتية الرحلات التي تعد صورة ذاتية من حيث تعبيرها عن حقبة زمنية وفي حياة الكاتب ومن حيث تعبيرها عن مشاهد رآها الكاتب، وأهم من هذا فهي تكشف ذات الكاتب وأحاسيسه ونبض وجدانه وتحليل شخصيته في مرحلة أو مواقف من حياته [29].

ثالثاً_ تطور السيرة الذاتية في الأدب الغربي:

عرفت اليونان البدايات الأولى لكتابة السيرة الذاتية، وتمثل ذلك في ماورد في أثناء كتابات الفلاسفة وغيرهم من مقتطفات شخصية من الكتابة عن الذات، على نحو ما نجده لدى (جالينوس).

وقد عنى اليونانيون بالسيرة الغيرية أكثر من اعتنائهم بالسيرة الذاتية، إذ كانوا يعنون بمرحلة النضج أو الذروة في حياة الفرد[30].

---

(27) الترجمة الذاتية في الأدبي العربي الحديث: 16.

(28) السيرة تاريخ وفن: 259.

(29) م.ن: 269. وينظر: السيرة الذاتية في الأدب العراقي الحديث: منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى بداية الحرب العالمية الثانية، أنغام عبد الله شعبان، رسالة ماجستير بإشراف: د. عناد الكبيسي، مقدمة إلى كلية الآداب/ جامعة المستنصرية، 1411هـ– 1990م:62.

(30) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 12.

وفي العصور الوسطى نجد اعترافات القديس اوغسطين التي كانت على جانب كبير من الصدق والصراحة، وقدرة على الاستبطان والتعري النفسي، وقد اعتبرت قمة الاعترافات الدينية [31]. وقد خلف لنا الأدب الغربي في العصور الوسطى أربعة أثار مهمة يعدها النقاد اقرب الكتابات الذاتية إلى السيرة الذاتية في مفهومها الحديث، وهي ماكتبه (ابيلارد، وولشمان وجيرادوس كامبرونسيس، وبترارك، والإمبراطور تشارلز الرابع).

وقد تضمن بعضها تصويراً للآثار، وهذه الوثائق الأربع تقترب من الطريقة الحديثة في كتابة السيرة الذاتية، بدرجة أكبر من اعترافات القديس اوغسطين[32].

وفي عصر النهضة الأوربية تظهر أكثر من سيرة ذاتية على أيدي (سيليني سانت، وكاردانو وتريزا) وغيرهم. وإذا كانت سيرة (سيليني) تقترب من الرواية، فإن (كتاب حياتي) لكاردانو أقرب إلى السيرة المعاصرة لكونها تجسد حقيقة شخصيته ومشاعره وأفكاره عن طريق التحليل. وتعد سيرة تريزا الذاتية (حياة) ثالث سيرة عظيمة في القرن السادس عشر [33].

ويعد القرن السابع عشر عصر المذكرات واليوميات، فقد كتب الكثيرون عن حياتهم الخاصة في صور أدبية، ومن أنواع السيرة الذاتية التي كثرت في ذلك العصر (الذكريات) التي يعني كاتبها بتسجيل حياته الخاصة[34].

وفي أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ظهرت الحركة الرومانسية فقوي الشعور بالذات وكثرت السيرة الذاتية كثرة لا مثيل لها، مما جعل النقاد يعدون هذا العصر عصر السيرة الذاتية، وابرز ما جاء في هذا العصر اعترافات جان جاك روسو (1712– 1778)[35].

---

(31) م.ن: 13.

(32) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 14.

(33) السيرة تاريخ وفن: 232 – 233.

(34) م.ن: 233. وينظر: الترجمة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين: 19.

(35) السيرة تاريخ وفن: 233.

ويرى شكري المبخوت أن تاريخ السيرة الذاتية الغربية مرتبط بروسو لأن اعترافاته مثلت بداية الوعي لهذا الفن الإنشائي[36].

وفي القرن التاسع عشر توالت الاعترافات والسير الذاتية واليوميات، منها اعترافات تولستوي التي شكلت تجارب إنسانية ثرية عبرت عن النفس الكبيرة في نضوجها بعد صراع طويل بين الغنى والفقر، بين العدالة والظلم، بين الشك والإيمان[37].

وفي الوقت نفسه نطلع على يوميات (مارية بشكر تسف)، تلك اليوميات الرائعة التي تصور التاريخ الكامل لامرأة بكل أفكارها وآمالها وما عانته من خيبة وأمل، وما نعمت به من جمال واستشعرته من مباهج وأحزان[38].

ومنذ ذلك الحين، كثرت ألوان السيرة الذاتية في الأدآب الغربية كثرة تجعلها تنافس فنون الآداب الأخرى، وأصبح لها معالم بارزة في هذه الآداب الغربية كلها[39].

رابعاً_ تطور السيرة الذاتية في الأدب العربي:

فن السيرة الذاتية، جنس أدبي عريق في حضارتنا العربية الاسلامية وإن لم يتبلور متصوره الذهني بما يتيح له الإنفراد بمصطلح نقدي خاص به، فقد صيغ على نماذج تكاد تصل به منزلة الاكتمال في المضمون والغرض والأسلوب [40]. وبذلك فالأدب العربي القديم عرف سيراً ذاتية ولكن ليس بمفهومها الاصطلاحي

(36) سيرة الغائب، سيرة الآتي– السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين: 99.

(37) الموت والعبقرية، د. عبد الرحم ن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 2، 1962: 99.

(38) م.ن: 128–158.

(39) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 20.

(40) النقد والحداثة، د. عبد السلام المسدي، منشورات (دار امية – دار العهد الجديد) تونس، ط2، 1989: 115.

الحديث ولا بمستواها الفني المعاصر وإنما كانت مشدودة إلى مبادئ ثقافية عامة تتصل برؤية العربي قديماً لنفسه وللكون والإله[41].

وقد وقف يحيى عبد الدايم في دراسته للسيرة الذاتية في التراث العربي على جملة من عناصر فنية تحققت في السيرة الذاتية القديمة منها: الصدق والتجرد والصراحة، وتصوير الصراع، ووضوح الخط البياني لحياة الكاتب منذ مرحلة الطفولة إلى مراحل متقدمة من حياته، فضلاً عن استعادة ماضي الحياة الشخصية بما فيها من حسنات وخطيئات، استعادة موثوقة على أساس من وحدة البناء وحسن العرض وجمال السرد وحرارة الحوار[42].

ويعد حنين بن إسحاق (ت 260هـ) من أوائل من طرق باب السيرة الذاتية في الأدب العربي، إذ تأثر بجالينوس اليوناني برسالته التي صور فيها ما لقيه من محن وشدائد من بعض نظرائه وأبناء حرفته و حتى أقاربه بسبب ما ناله من حظوة عند الخليفة العباسي المتوكل[43].

ومن الكتابات التي تقترب من السيرة الذاتية ما كتبه ابن حزم الأندلسي (ت 456 هـ) في كتابه ((طوق الحمامة في الألفة والآلاف)) الذي يجري فيه مجرى الاعتراف حين يبوح بذكريات شبابه العاطفية[44].

ومن الكتابات الذاتية التي اشتهرت ما كتبه الإمام الغزالي (ت 505 هـ) في كتابه ((المنقذ من الضلال)) صور فيه خلاصة تجربته الإسلامية ومعالم رحلته العقلية وكيف وصل من خلالها إلى الحق تعالى وقد اختلف النقاد فيما جاء في الكتاب فمنهم من عده سيرة ذاتية[45].

---

(41) سيرة الغائب، سيرة الآتي – السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين: 26.

(42) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 42.

(43) الترجمة الشخصية، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط3، (د.ت): 12.

(44) السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 19.

(45) أنيس المقدسي في كتابه ((الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة))، دار العلم للملايين، بيروت، ط 2، 1978: 557 – 558. ود. عبد السلام المسدي في كتابه ((النقد والحداثة)): 116.

ويرى الباحث بعد اطلاعه على الكتاب وعلى ما يخص موضع الاختلاف بين النقاد، فوجد أن الكتاب لا يمثل "سيرة ذاتية بالمعنى الدقيق ؛ لأنه لا يصور إلا جانبا من أزمة روحية، تعرض لها الغزالي، دون نظر الى ما عداها" [46].فهو أشبه ما يكون بسيرة ذاتية مجتزأة تعالج جانباً واحداً في حياة الإمام الغزالي، وهو الجانب النفسي الروحي.

وتتضح معالم السيرة الذاتية في التراث العربي مع السيرة الذاتية التي كتبها أسامة بن منقذ (ت 584 هـ) وهي ((الاعتبار)) إذ أنها تمثل أكمل سيرة ذاتية، ففيها حاول الكاتب تغطية كل حياته منذ طفولته إلى أخر أيام حياته، وقد كتبها آنذاك وهو في عمر يناهز التسعين[47].

نخلص إلى القول أن الأدب العربي القديم عرف السيرة الذاتية – بمفهومها البسيط وليس بما هي عليه في العصر الحديث – مثلما عرف الألوان الأخرى من الكتابة التي تعتمد التعبير عن شخصية كاتبها، وإن لم يكن مدلول المصطلحات (المتأخرة) محدداً وواضحاً في النقد العربي القديم.

وفي القرن التاسع عشر ظهرت السيرة الذاتية التي لا تختلف في جملتها عن السيرة الذاتية التي خلفها علماء العرب منذ القدم ومن ذلك ما كتبه الشيخ محمد عياد الطنطاوي (1810 – 1861م) الذي وصلت إلينا سيرته عن طريق الكاتب الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي تحت عنوان ((حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي))[48].

وما كتبه علي مبارك (1824 – 1892م) في مؤلفه ((الخطط التوفيقية)) الذي ضمنه سيرة حياته فاستخرجها محمد دري الحكيم [49]. فضلاً عما كتبه محمد

(46) د. إحسان عباس في كتابه ((فن السيرة)): 136.
(47) دراسات في كتب التراجم والسير: 30.
(48) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 49. وفي الصفحة نفسها ذكر عبد الدايم مترجمها إلى العربية (كلثوم عودة)، بتحقيق: عبد الحميد حسن ومحمد عبد الغني حسن، القاهرة، 1964.
(49) الترجمة الشخصية: 105.

عبده (1849 – 1905م) في سيرته التي كتبها تلبية لطلب محمد رشيد رضا، فجاءت تحت عنوان ((تاريخ الأستاذ الإمام للسيد محمد رشيد رضا))[50].

وهناك لون أخر من السير الذاتية ظهر في هذا العصر، احتذى فيه الكتاب احتذاء يسيراً بعض ما اطلعوا عليه في الأداب الغربية، ويتمثل ذلك في ما كتبه كل من رفاعه الطهطاوي في ((تلخيص الإبريز)) وعلي مبارك في كتابه ((علم الدين)) وأحمد فارس الشدياق في كتابه ((الساق على الساق فيما هو الفارياق)) وعلى الرغم من أفادتهم اليسيرة من الأداب الغربية فإنهم حافظوا على الأسلوب العربي الموروث، المتأثر بأسلوب المقالة تأثرا كبيراً[51].

وفي بداية القرن العشرين ظهرت السيرة الذاتية الفنية جنباً إلى جنب مع الرواية فجاءت أما ممتزجة مع الرواية وهو ما يطلق عليه في الاصطلاح الحديث (الرواية السيرية) على نحو ما نجده في رواية ((زينب)) لمحمد حسين هيكل، و((سارة)) لعباس محمود العقاد، و((إبراهيم الكاتب)) و ((إبراهيم الثاني)) للمازني، و((زهرة العمر)) و ((سجن العمر)) و((يوميات نائب في الأرياف)) لتوفيق الحكيم. أو جاءت مستقلة على نحو ما نجده في ((أنا)) و ((حياة قلم)) للعقاد و ((سبعون)) لميخائيل نعيمه [52] و ((لمحات من حياتي)) لنجيب الكيلاني[53].

ومن السير الذاتية التي لاقت شهرة واسعة ((الأيام)) لطه حسين، إذ عد بعض النقاد العرب كتاب ((الأيام)) النص التأسيسي الأول في السيرة الذاتية العربية الحديثة[54].

على الرغم من الإشكالية التي أثيرت في تحديد هوية هذا النص، فمنهم من وقف متذبذباً في رأيه حول عد ((الأيام)) سيرة ذاتية أم رواية [55]. ومنهم من رأى

---

(50) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 59.

(51) م.ن:49.

(52) م.ن:79 –80.

(53) الشخصية في سلسلة روايات إسلامية معاصرة لنجيب الكيلاني، أحمد طه أحمد، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب/جامعة الموصل 1427هـ – 2006م: 30.

(54) السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث: حدود الجنس وإشكالاته، محمد الباردي، مجلة فصول، مجلد 16، العدد (13)، 1998: 69.

أن طه حسين سلك سبيلاً وسطاً بين السيرة الذاتية الروائية وبين الرواية الفنية المعتمدة على الحياة الشخصية [56].إلا أن المتأمل في كتاب ((الأيام)) بأجزائه الثلاثة، لايستطيع أن يغالط نفسه في عد هذا الكتاب سيرة ذاتية، وان اختلفت آراء النقاد فيه، فالكتاب حمّال اوجه، فقد تقاطعت في بنائه السردي عناصر جمعت بين الرواية والرواية السيرية والسيرة الذاتية على وجه الخصوص، "وما اختراق طه حسين لقواعد السيرة الذاتية – في هذا الجانب على الأقل – إلا دليل على انه كان يقصد إلى الابتداع وجعل كتابه يغري ويتمنّع فيحافظ على بعض سره دون أن تهتكه الدراسات مهما تكاثرت[57].

ومن رواد كتاب السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث أحمد أمين في كتابه ((حياتي))، والكتاب مزيج من السيرة الذاتية والمذكرات اليومية، وفيه سرد مفصل عن حياته منذ أيام الطفولة حتى قبيل وفاته بفترة قليلة معتمداً في سرده على الأسلوب القصصي الإخباري الذي يخلو من العناصر الفنية للبناء الروائي أو البناء الدرامي كالتصوير والحوار[58].

الخاتمة

(55) د. عبد المحسن طه بدر في كتابه ((تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (1870–1938)، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1968: 298 – 299.

(56) د. يحيى عبد الدايم في كتاب ((الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث)): 438.

(57) شكري المبخوت في كتابه ((سيرة الغائب – سيرة الآتي، السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين)): 43.

(58) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 260 –263.

دار بحثنا على جنس أدبي في الأدب العربي الحديث لم يأخذ حظه الوافر عند الدارسين، وهو السيرة الذاتية. وقد توصل البحث إلى عدة أمور أهمها:

1. إن هناك تبايناً في الاستعمال بين كلمتي (السيرة) و (الترجمة) وان خلط بينهما النقد الحديث، فالأولى تدل على التأريخ المسهب للحياة، أما الثانية فهي تدل على التأريخ الموجز للحياة.
2. أن السيرة الأدبية على نوعين:

سيرة ذاتية: وهي أن يكتب الإنسان بعد اكتمال تجربته (أو تكاد) سيرة حياته بأسلوب مشوق مسلطاً الضوء على ذاته وكل ما يتعلق بها.

أما السيرة الغيرية: وهي أن يكتب الإنسان عن الأشخاص البارزين لجلاء شخصياتهم، ويكون موضوعياً في كشفها.

3. السيرة الذاتية هي على العموم نثرية – وقد تكون شعرية، أما النثرية فهي تختلف عن الفن القصصي عموماً وعن الرواية والمذكرات واليوميات والاعترافات خصوصاً، ويمكن القول أن الرواية السيرية هي الأكثر صلةً بها من بين الأجناس النثرية الأخرى، أما السيرة الذاتية الشعرية فهي قصائد يبوح بها الشعراء سيرتهم الذاتية بشكل فني آخر.
4. لقد حفل الأدب الغربي بنماذج من السيرة الذاتية تعد الأصول الأولى لهذا الفن بدءاً من اليونان القديمة ووصولا بعصر النهضة الأوربية وانتهاءً بالعصر الحديث، ومن الإنصاف القول أن السيرة الذاتية بقالبها الفني الحديث وشروطها وعناصرها هي من نتاجات الأدب الغربي منذ نشوئها حتى اكتملت جنسا أدبيا متفردا له أصوله وضوابطه وحدوده.
5. السيرة الذاتية: جنس أدبي عريق في حضارتنا العربية الإسلامية، ولكن ليس بمفهومه الفني المعاصر، وتشهد على ذلك كتابات سيرية متقدمة ليست بالقليلة، نذكر منها ((طوق الحمامة في الألفة والآلاف)) لابن حزم الأندلسي (ت 456هـ)، كذلك كتاب ((الاعتبار)) لمصنفه أسامة بن منقذ (ت 584هـ).

Autobiography: Concept and Development

Ahmed Taha Ahmed [0*]

Abstract

Autobiography is a recent literary trend in comparison with other literary trends. It is a full account of important literary figures.

It contains their experiences whether pleasant or not as well as important lessons or messages to the reader presented in an interesting influential style.

This research tackles the "Autobiography" as a literary type distinct from biography and other related litrary types.Then ،a Light is shed on the devlopment of autopigraohy in both western and Arabic literature.

* Dept. of Arabic/ College of Arts/ University of Mosul.